

# الميلاد

## همدان دماج

لم يستدرِك، بزخم اللحظات المتطايرة، شعوره "اللانهائي" بالسعادة التي اعترته فجأة وأحاطته بدفءٍ خرافي جميل. لكنه كان يدرك تماماً أن شيئاً ما قد حدث له عندما اكتسحت الظلمة جدران المكان، الذي لم يعد، في تلك اللحظات المتطايرة، محكوماً بأي قوانين فيزيائية. وبدأت الأجساد البشرية التي اكتظ بها المكان تتلاشى رويداً رويداً، لتختفي تماماً في ضباب سديمي لم يعرف من أين جاء. وأطبق صمت عميق، مثل عمق "اللا إدراك" الذي اختزل بعنف مخيلته الصغيرة، وألقى نفسه وحيداً في فضاء بدا أقل حجماً وأكثر سكوناً. وسرَّح بصره نحو السماء الكحلية الملبدة بغيوم قطنية كانت بالقرب، بحيث كان يعتقد أن قفزة واحدة ستمكنه دون شك من إلصاق رأسه بسطحها

القطني الرقيق. ودون أن يعرف كيف تسنى له ذلك، كان قد عدَّ  
بسرعة الأقمار الواحد والعشرين المعلقة والمغشاة برماد ضوئي  
بارد.

نعم، عدّها ولم يكثرث كيف أمكن له ذلك، وبتلك السرعة  
التي لم تمكنه حتى من رؤيتها، واستسلم بتلذذ كبير لانقياده وراء  
تلك اللحظات المتتابة التي كانت تتسارع في خطوها خارج  
نطاق الواقعية، تلك الأحداث المزدحمة الغريبة التي أدرك دون  
صعوبة أنه كان يحوك تفاصيلها بنفسه!

\* \* \* □

ترأى له، كما كان يريد، من وراء "اللاشيء" سور عالٍ بلا  
ألوان، انتشرت في حديقته الصغيرة كائنات وضاعة تشع دفئاً  
وحناناً. وتقدمت نحوه إحداهن بفستانها الرخامي اللامع الذي  
بدا يكنس الغبار القمري عن حشائش الحديقة ويعيد للأشياء  
ألونها الطبيعية. "ما أجملها!"، تنهد بعمق، ومد يده نحوها  
فأمسكها بحنان، واهتز وجدانه بكامله عندما سمعها تهمس في

أذنه، التي بدت كمكبر صوت معدني: "أحبك!". سمعها واضحة، رغم أنها لم تكن حتى تلك اللحظة قد قالت له شيئاً على الإطلاق! ووجد نفسه، هكذا، دون سابق إنذار، يذوب في غراميات سابقة، بل وذكريات لم يكن قد عاشها أبداً!! بدأت تتحدث. وبدأ يصغي. وتناغم صوتها العذب فدغدغ أحلامه الكبيرة، كأنه حديث قد بدءاه منذ زمن طويل. وأمال رأسه المثقل على صدرها النابض، وغاص في نشوة اللحظات التي أرخت كل خلايا حواسه المجهدة فنام قبل أن يدرك، بشهقة اكتشاف وفزع، أنه كان نائماً بحضن شمعة!!

\* \* \* □

لم يكن قد أدرك كم من الوقت مضى وهو نائم. لكنه بدأ يتجرع الحقيقة المرة عندما انطبعت على جدران قزचितه المشدودة صورة اللهب المشتعل على شعرها الذهبي اللامع. كان قد تسمر في مكانه فلم يعد يقوى على الحراك. وبلغ ريقه بصعوبة فجرح حنجرته الجافة التي لم تعد قادرة على تحمل صوته

المرعوب فخرج نصف حشجة ذاوية: "يا إلهي! إنها تحترق!!".  
أما هي فلم تكن طوال تلك المدة التي نام فيها على صدرها  
الشمعي، والتي لم تستغرق أكثر من ثانية زمنية واحدة، قد  
توقفت عن الحديث، وإن غدا صوتها الآن أكثر شحوباً، واهياً،  
فلم يعد باستطاعته أن يفهم منه شيئاً.

كان إعصار من أسلاك معدنية شائكة يدور في ذهنه الرخو.  
"إنها تحتضر!". وتملكه خوف لانهائي، وهز رثيته فزع داخلي  
حامض، وأحس بأطرافه تضممر حتى بدا له جسده هزياً كمظلة  
طويت بعث ورميت في قاع مجهول. وبدأ صوتها يختفي شيئاً  
فشيئاً ليتحول إلى حشجة اقشعراً لها جسده الناحل وفقد توازنه،  
وأطبق صمت مفاجئ، فلم يعد قادراً على سماع أي صوت سوى  
صوت واحد، قوي، وواضح أتى من أعماقه الغائرة:  
"أنقذني!!". وما هي إلا لحظات حتى تفجر في صدره المقبوض  
فجأة ينبوع أمل كبير اخضرت له أوراق أصابعه الذابلة، عندما  
تذكر بلوم شديد قدرته على إنقاذها، وأحس برثيته تقفزان  
فرحاً، واغرورقت عيناه بدموع منتصرة، واستجمع قواه وحلق

بمجد نحو اللهب المتراقص، وتتم بكلمات غير مفهومة، ونفخ بقوة!!

\* \* \* □

كانت أنغام موسيقى وأصوات بشرية بعيدة قد بدأت مرة أخرى تغزو الفضاء الصغير بسطحه العطبي الرقيق الذي تلاشى بسرعة عندما أضاءت الأنوار، وتعالَت أصوات احتفالية وتصفيق ملاً أركان المكان الذي استعاد خواصه الفيزيائية مرة أخرى ليكسب ابتسامته المتصنعة التي ارتسمت على شفثيه الراحشتين مزيداً من الدهشة. وبينما هو غارق في محاولة إدراك ما يحدث، متتبِعاً بعيون فرحة خيط الدخان المتصاعد من الشموع الهالجة أمامه، ربتت أيادٍ كثيرة على ظهره المقوس، وانهالت على سمعه عبارات من كل جانب:

- عيد ميلاد سعيد!... عيد ميلاد سعيد!!

نوفمبر 1995

